وصايا الشيوخ للشبان

لجناب العالم العامل الدكتور بوحنا ورتبات

من خطبة له تلاها في المدرسة الكلية السورية على طلبة العلم فيها

لا استطيع ان اشهد هذا المحفل الحافل وأرى امامي هذا العدد الكبير من طلبة العلم الاَّ واذكر ان الحياة جهاد والناس في هذا الجهاد على اربع طبقات الأولى الاحداث الذين يتهيأون لهُ . والثانية الشبان الذين ابتدأوا بهِ . والثالثة الكهول الذين يجاهدون فيهِ . والرابعة الشيوخ الذين فرغوا منهُ . واذكر ايضاً ان بعض الحكماء الذين جازوا هذه الادوار وعرفوا شأنها بالخبرة والمراقبة قد خلفوا من الوصايا والنصائح للذين يبدأون بالحياة ومعرفتهم بها قاصرة ما هو على غاية من الفائدة . واني رافع اليكم ايها الشبان بعض ما قالوهُ واوصوكم بهِ حتى تكونوا كالسفينة الَّتي تجوز البحار المتلاطمة بالامواج وتصل سالمة الى المرفإ المقصود ولا تتكسر كما تكسرت سفن كثيرة . وهذه الاقوال ممتدة من اول التاريخ المعروف الى الآن واقدمها رسالة وضعها امير من الدولة الخامسة المصرية قبل هذا العهد بنحو خمسة آلاف سنة يقول فيها ما ترجمتهُ "الابن الصالح من نعم الله. ان كنت حكيماً رب ابنك في مخافة الله . اذا تعظَّم الانسان اذلَّهُ الله . اذا صرت عظيماً بعد ان كنت وضيعاً وصرت وجيهاً في بلدك وجمعت مالاً كثيراً وصرت سيداً منظوراً فلا تستكبر بغناك لان الذي اعطاك هو الله ولا تحتقر من كان فقيراً كما كنت". وهو كلام عجيب قيل في زمان محسبهُ كالخيال وكنا نرتاب فيهِ لو لم يكن البردي المكتوب عليهِ من ذلك العهد محفوظاً الى الآن في مكتبة باريز . وقام بعدهُ بنحو الف سنة ملك من الدولة الثانية عشرة كتب حكماً كثيرة لابنهِ اوسارتاسن الاول ومن اقوال احد عمَّالهِ الَّتي لا تزال منقوشة على صخور مصر الى الآن نرى شيئاً من قياسهم الادبي في تلك الاعصر قال "لم ادَّخر شيئاً لنفسي مما لغيري — لم اقهر يتيماً ولم اظلم ارملة" . ومن اقوالهم في ذلك الزمان ايضاً "لم اكذب ولم اسرق ولم ازنِ ولم اقتل ولم اكسل ولم اسكر ولم انافق ولم اضرب احداً خفية ولم ادنِّس ضميري لارضاء غيري. لم اظلم المسكين ولم اكلف احداً الاَّ وسعهُ ولم أُبح لسيد ان يجور على عبدهِ ولم اكن سبباً لبكاء احد او هلاكهِ . اعطيت خبزاً للجائع وماءً للعطشان ولباساً للعريان ومأوًى للغريب" . وقام بعد ذلك بنحو الف سنة سليمان الحكيم وكتب امثالهُ المعروفة الَّتي تحثُّ الشبان على طلب العلم والجدِّ في العمل

وتقوى الله وعدم مجاراة الخطاة والتحفظ من ملق الاشرار . وقام بعدهم قرب التاريخ المسيحي سنكا الفيلسوف واوريليوس الامبراطور الروماني ثم حكماء العرب الذين اقوالهم للشبان وامثالهم واشعارهم معروفة عندكم

والامر الاول الذي انبّهكم اليهِ هو ان كل ما يتعلق بحياة الانسان من حيث تصرفهُ وتجاحهُ وما ينالهُ من المقام والاسم بين الناس عائد الى صفاتهِ اي الى الخُلق المفطور هو عليهِ والطباع الّتي يجري عليها وهو ماشار اليهِ الشاعر في قولهِ

كل امرئ متصرفٌ بطباعهِ ليس امرؤ الّا على ما يُطبَعُ

وعلى ذلك يكون حَسَن السيرة اذا كان حَسَن الصفات وردي السيرة التصرف اذا كان ردي الخلق والسجيّة مصداقاً لقول العامة كل اناء ينضح بما فيهِ اي انّ العلاقة لازمة بين ما يكون الانسان عليهِ باطناً وما تكون عليهِ اعمالهُ وظواهرهُ

ومن المحقق ان الخلق شيء نامٍ وكل فكر وشعور يضيف اليهِ شيئاً ما . فان خالجت عقولكم وقلوبكم الامور الرفيعة الجليلة صارت صفاتكم حسنة محمودة وان خالجتها الافكار القبيحة صارت صفاتكم قبيحة مكروهة . فلكم ان تبنوا في انفسكم بناء سنيًّا او حقيرًا كما تشاؤون . ثم قد تكون الصفات خفية مكتومة ولكن الغالب ان الظاهر يدل على الباطن وان الوجه والحركات الخارجة تدلُّ على ما وراءها من سجايا النفس . ومهما حاول الانسان ان يستر قبائحهُ برداء الفضل لم يخفَ امرهُ على معارفهِ ولقد صدق من قال

ثوب الرياء يشفُّ عما تحتهُ فاذا اكتسيتَ بهِ فانك عارٍ

وصفاتنا هي كل ما يبقى معنا بعد الموت . قيل ان الاسكندر الكبير اوصى ان تُخرَج يداهُ من الكفن عند دفنهِ ليرى الجميع ان الذي ملك الارض باسرها لم يأخذ معهُ شيئاً . هكذا نحن نذهب لا بما كسبناهُ من المال بل بما ربّيناهُ في انفسنا من العزّة وكرم الاخلاق وطهارة القلب او اللؤم والفساد والخساسة

ولما كان الانسان عضوًا في العائلة وفي الهيئة الاجتماعيّة كانت لهُ علاقة شديدة باخوانهِ ينشأ منها بالضرورة ان ما يعملهُ الواحد منهم يؤثّر في الآخر فينتشر من كل انسان شيء من التأثير الى الذين حولهُ كثُر او قلَّ ظهر او خفي صلح او فسد ويكون كل فرد من افراد الناس إمّا من المصلحين الذين ينشُون الخير في الارض او المفسدين الذين يعثون فيها ويملأونها بالقبائح . وكثيرًا ما يكون هذا التأثير على سبيل القدوة الّتي لا يسمع لها صوت ولكنها تعمل في النفس خفيةً وتكتسبها الاخلاق الكريمة اذا رأت الصدق

والاستقامة والنزاهة والعفة والاجتهاد ظاهرة في صفات الذين يقتدى بهم . والتاريخ مشحون باسماء الابطال والقواد والعلماء والصالحين الذين لم يقتصر عملهم على اهل زمانهم بل امتدت شهرتهم مدى الاجيال وكانت سيرتهم مثالاً وقدوة للذين بعدهم

ولصفات الانسان علاقة شديدة بالنجاح . ويراد بالنجاح بلوغ اعظم ما يمكن من السعادة في هذه الدنيا . غير ان ما يعدُّهُ البعض نجاحاً قد يكون في الحقيقة خيبة فان الرجل الذي يربح مالاً كثيراً بالحرام او بخسارة عافيته او خيانة اهله لا يقال انهُ من اهل النجاح بل اذا ربح العالم كلهُ وخسر نفسهُ لم يكن من الرابحين . وكثيراً ما يظهر الامر خيبةً ويكون في الحقيقة فوزاً عظيماً

ولما كان النجاح مبتغى كل احد فلا بد من ذكر بعض شرائطهِ . واول ذلك الجدُّ اي العمل الدائم وهو ما اشار اليهِ الشاعر في قولهِ

الجَدُّ في الجِدِّ والحِرمانُ في الكسلِ فانصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غاية الاملِ

وهو شرط لازم في كل مكان وزمان ولكن على الخصوص في هذه الايام حيث اشتدَّت المناظرة في العلم والتجارة والصناعة حتى لم يبقَ سبيل للنجاح الاَّ للمجتهد فقط . ولا يقوم مقام الجد شيء لان الذكاء الذي يحسبهُ قوم كافياً كافلاً للنجاح وهمٌ لا يخدع الاَّ المعجبين بانفسهم . وقد ذكر القدماء لذلك حكاية معروفة وهي ان ارنباً وسلحفاة تراهنا على سباق ولما كان الارنب واثقاً بسرعة جريهِ تقاعد ونام واما السلحفاة فلم يكن لها مع بُطء حركتها الاَّ الكدُّ المتصل وكان ذلك سبب فوزها . ثم ان اخذق الناس هم الذين اشتهروا بالجدِّ العظيم والعمل الدائم وما بلغ قط مقاماً رفيعاً الاَّ من اعتزل القول بالسعد والنحس وقاوم المشاق التي عارضتهُ واخترق صفوف ما عاداهُ من صروف الدهر الى ان نال المطلوب وقال مع الشاعر

لاستسهلنَّ الصعب او أُدرِكَ المنى فما انقادتِ الآمالُ الاَّ لصابرِ

وكيف كان الامر ابعدوا عن البطالة والكسل فهما مفسدة لكل انسان وسبب لشقاء الشبَّان الاغنياء الذين لا يعرفون كيف يشغلون الوقت الاَّ بان يلقوا بأنفسهم الى التجارب والفحشاء والمرض والهلاك . وامثلة ذلك كثيرة شهيرة عبرة لمن يعتبر مثبتة لقول من قال

ان الشباب والفراغَ والجِدة مفسدة للمرء اي مفسدهِ

ويشترط ايضاً لنجاحكم ان يكون لكم غرض خاص من اغراض الحياة تجعلونهُ ابداً نصب العين سواء كان ذلك صناعةً او تجارة او علماً . لانهُ من الواضح انكم اذا فرَّقتم قوَّتكم في اشياء كثيرة كنتم ضعفاء فيها جميعاً واذا جمعتموها في شيء واحد كنتم اقوياء فيهِ . نعم لا بدَّ لكم من الدرس الواسع وتحصيل المعارف العامة لانها تهذب عقولكم وتزيدكم

قوّة في مباشرة الاعمال ولكن لا بد ايضاً من صرف قواكم الى غرض واحد تختارونهُ وتوقون اليهِ. غير ان هذا الاختيار لا يكون دائماً في طاقة الانسان بل كثيرًا ما يتدفع فيهِ باتفاق الاحوال. ولكن عليهِ ان يتقن مهنتهُ مهما كانت فلا ترضوا الاَّ بما يمكن من افضل وسائل العلم للقيام بها حق القيام لانهُ اذا حدث نقص من هذا القبيل عارضكم الدهر وحل بكم الفشل والاسف . ومن اقوال الحكماء لا تدخرنَّ امرًا لا تكون ماهرًا فيهِ وقولهم ايضاً لا تطلب سرعة العمل واطلب اجادتهُ فان الناس لا يسألون في كم فرغتَ منهُ وانما ينظرون الى اتقانهِ وجودة صنعهِ . ثم اذا اخترتم حرفة وجعلتموها غرض الحياة وتعلمتموها حق العلم فالزموها بلا انقطاع الى النهاية لانكم اذا اقدمتم عنها او بدلتموها بغيرها كانت النتيجة غالباً خيبة الامل

وقلَّ من جدَّ في امرٍ يحاولهُ واستعمل الرفق الاَّ فاز بالظفرِ

غير انهُ اذ كان جدكم في العمل عظيماً ومهارتكم في الصناعة شهيرة ومواظبتكم على اعمالكم غير منقطعة ولم تكن صفاتكم صفات الصدق والاستقامة والطهارة لم تستفيدوا شيئاً لانهُ كما يغرق السفينة ثقب واحد كذلك فقد شيء من هذه الاوصاف كافٍ لاسقاطكم وتعطيل آمالكم . ألم تروا المرّة بعد المرة ان الكاذب والخائن والسكير والمقامر والفاسد والمتعظم لا يفلحون. ومهما كان طريقكم مظلماً وعرًا طويلاً لا تخافوا ولا تملوا ولا تعتمدوا على نسيب او صديق وسواء احبكم الناس او ابغضوكم وسواء تملقوكم او احتقروكم الزموا ابدًا طريق الاستقامة والصلاح وتوكلوا على الله ولا تخافوا احدًا

واما المال الذي يجدُّ جمهور الناس في كسبهِ فهو عبارة عن كل ما يمكن تحصيلهُ بالشراء وهو قوّة عظيمة يتصرف فيها الانسان للخير او للشر كما يشاء . فاذا نالهُ بالحلال وصار بيدهِ غنيًّا اي مكتفيًا بما عندهُ لا يحتاج الى التسوُّل الذميم وبذلهُ في وسائل الراحة والعيشة الهنيئة وجعل منهُ نصيبًا للمساكين كان خيرًا عظيماً خلافاً لما اذا نالهُ ببعض طرق الحرام او صار لهُ الهًا يعبدهُ او وسيلة للبذخ والفجور او ولعًا يليهِ عن مصالح نفسهِ العليا ويسلب منهُ الانسانية ويسدُّ اذنيهِ عن صراخ المسكين فيكون عند ذلك وبالاً كبيرًا لهُ في هذه الدنيا والآخرة . فهو الذي يرفع التمدن ويشيد اعمدة العلم ويبني المدارس والمستشفيات وبيوت الفقراء ويرقي الانسان المحسن الى مقام علي في تاريخ الجود والفضل والكرامة وهو الذي يهدم الآداب ويملأ القلوب حزنًا والبيوت بكاءً ويحط اخلاق الرجل حتى يصير مخيلاً ذميمًا او مسرفًا فاسقًا مكروهًا عند الله والناس (ستأتي البقية)